الباب الثامن والأربعون: في الشباب والشيب والصحة والعافية وأخبار المعمرين وما أشبه ذلك وفيه فصول

الفصل الأول: في الشباب وفضله

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ما بعث الله نبياً إلا شاباً، ولا أوتي العلمَ عالمٌ إلا شاباً ثم تلا هذه الآية: ﴿قالوا سمعنا فتًى يذكرهم يُقال له إبراهيم﴾[1] وقد أخبر الله تعالى به، ثم أتى يحيى بن زكريا الحكمة، قال تعالى: ﴿وآتيناه الحكمَ صبياً﴾[2] وقال تعالى: ﴿إذا أوى الفتيةُ إلى الكهفِ﴾[3] وقال تعالى: ﴿إنَّهم فتيةٌ آمنوا بربِّهم﴾[4] وقال تعالى: ﴿وإذ قالَ موسى لفتَاهُ﴾[5] وقال أنس رضي الله تعالى عنه: قبض رسول الله ﷺ وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء، وقد قدّم رسول الله ﷺ أسامة بن زيد على جميع الأنصار وكبار المهاجرين على حداثة سنه، وعتاب بن أسيد ولاّه مكة وبها أكابر قريش، وعبد اللّه بن عباس على جلالة قدره وحفظه من العلم. وقال بعض البلغاء: الشباب باكورة الحياة، وأطيب العيش أوائله، كما أن أطيب الثمار بواكيرها، والشباب أبلغ الشفعاء عند النساء، وأكثر الوسائل لقلوبهن، ولذلك قال الشاعر:

أحلى الرجالِ مع النساءِ مواقعا ... مَنْ كان أشبههم بهنَّ خدودا

وما بَكَتِ العربُ على شيء ما بكت على الشباب، ولو لم يكن هذا الشباب حميداً، وزمانه حبيباً، لوسامة صورته، وبهجة منظره، وجمال خلقته، واعتدال قامته، ولما جاور الله في جنات خلده شاب كما قال رسول الله ﷺ: «جردا مردا أبناء ثلاثين» وقد جاء في ذلك أشياء كثيرة ليس هذا موضع بسطها.

الفصل الثاني: في الشيب وفضله

أوّل من شاب سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، وفي الخبر: «إن الله تعالى يقول الشيب نوري وأنا

---

(١) سورة: الأنبياء، الآية: ٦٠.
(٢) سورة: مريم، الآية: ١٢.
(٣) سورة: الكهف، الآية: ١٠.
(٤) سورة: الكهف، الآية: ١٣.
(٥) سورة: الكهف، الآية: ٦٠.

استحي أن أحرقه بناري». وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال: جاء رجلان إلى النبي ﷺ، شيخ وشاب، فتكلم الشاب قبل أن يتكلم الشيخ فقال عليه الصلاة والسلام: كبر كبر. وبهذه الرواية: «من وقر كبيراً لكبر سنه، آمنه الله من فزع يوم القيامة». وعن أنس رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى وعزتي وجلالي وفاقة خلقي إليّ، إني لأستحي من عبدي وأمتي يشيبان في الإسلام أن أعذبهما» ثم بكى فقيل له: ما يبكيك يا رسول الله؟ قال: «أبكي ممن يستحي الله منه، وهو لا يستحي من الله». وقال: «من بلغ ثمانين من هذه الأمة حرّمه الله على النار». وقال: «إذا بلغ المؤمن ثمانين سنة فإنه أسير الله في الأرض تكتب له الحسنات وتمحى عنه السيئات». وقيل: كان الرجل فيمن كان قبلكم لا يحتلم[1] حتى يبلغ ثمانين سنة. وقال ابن وهب: إنَّ أصغر من مات من ولد آدم ابن مائتي سنة، ، فبكته الإنس والجن لحداثة سنه. وقال النخعي: كان يقال إذا بلغ الرجل أربعين سنة على خلق لم يتغير عنه حتى يموت. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما رفعه «من أتى عليه أربعون سنة، ثم لم يغلب خيره على شره فليتجهز إلى النار». وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال ملك الموت لنوح عليه الصلاة والسلام: يا أطول النبيين عمراً كيف وجدت الدنيا ولذّتها؟ قال: كرجل دخل في بيت له بابان فقام وسط البيت ساعة ثم خرج من الباب الثاني. ويقال: أطع أكبر منك ولو بليلة. وقال عبد العزيز بن مروان من لم يتعظ بثلاث لم ينته بشيء: الإسلام والقرآن والشيب. قال الشاعر:

يا عامرَ الدنيا على شيبه ... فيك أعاجيبُ لمن يعجبُ
ما عذرُ مَنْ يعمرُ بنيانُهُ ... وعمرُهُ منهدمٌ يخربُ

وقال الشعبي: الشيب علة لا يعاد منها، ومصيبة لا يعزى عليها.

وقال الفرزدق:

ويقول كيف يميلُ مثلُك للظِّبا[2] ... وعليكَ من عظمِ المشيبِ عذارُ
والشيبُ ينقصُ في الشبابِ كأنَّهُ ... ليلٌ يصيحُ بعارضَيْهِ نهارُ

وقال أبو دلف في بياض اللحية:

وتكَوَّنَني همٌّ لبيضاءَ نابتَهْ ... لها بغضةٌ في مضمرِ القلبِ ثابتَهْ
ومن عجبٍ أني إذا رمتُ قَصَّها ... قصَصْتُ سِواها وهي تضحكُ نابتَهْ

وقال أيضاً:

أرى شيبَ الرجال من الغواني ... بمبلغِ شيبِهنَّ من الرجالِ

وقال ابن المعتز:

فظللتُ أطلبُ وَصْلَها بتذلُّلٍ ... والشيبُ يغمزُها بأنْ لا تفعلي

قيل: صاح شاب بشيخ أحدب: بكَمِ ابتَعْتَ هذا القوس ياعماه؟ فقال: يا بني إني أعْطِيتُهَا بغير ثمن. ومرّ رجلٌ

(١) يحلتم: يصير حليماً.
(٢) للظِّبا: للغزلان.

أشمط بامرأة عجيبة في الجمال فقال: يا هذه إن كان لك زوج فبارك الله لك فيه، وإلا فأعلمينا. فقالت: كأنك تخطبني. قال: نعم، فقالت: إنَّ فيّ عيباً، قال: وما هو؟ قالت: شيب في رأسي، فثنى عنان دابته. فقالت: على رسلك فلا والله ما بلغت عشرين سنة، ولا رأيتُ في رأسي شعرة بيضاء ولكنني أحببت أن أعلمك أني أكره منك مثل ما تكره مني، فأنشد ويقال إنه لابن المعتز:

رأينَ الغَواني الشيبَ لاح بمفرقي ... فأعْرَضْن عني بالخدودِ النواضرِ

وقال آخر:

سألتُها قبلةً يوماً وقد نظرَتْ ... شيبي وقد كنتُ ذا مالٍ وذا نعمِ
فأعرضَتْ وتولَّتْ وهي قائلةٌ ... لا والذي أوجدَ الأشياءَ من عدمِ
ما كان لي في بياضِ الشيبِ من أرَبٍ ... أفي الحياة يكونُ القطنُ حشوَ فمي

وقال آخر:

قالَتْ: أرى مسكة الشعرِ البهيمِ غدَتْ ... كافورةً قد أحالَتْهَا يدُ الزمنِ
فقلتُ: طيب بطيبٍ والتنقُّل في ... معادنِ الطيب أمرٌ غيرُ ممتهن
قالت: صدَقْتَ وما أنكَرْتَ ذاك بذا ... ألمسك للشمِّ، والكافورُ للكفنِ

وقال آخر:

قالت: أراك خضبتَ الشيبَ قلتُ لها ... ستَرْتُهُ عنكِ يا سَمْعي ويا بَصَري
فقهقَهَتْ ثم قالت من تعجُّبِها ... تكاثَرَ الغشُّ حتى صارَ في الشَّعرِ

وقال ابن نباتة:

تبسَّمُ الشيبُ بوجهِ الفتى ... يوجبُ سحَّ الدمعِ من جفنِهِ
وكيفَ لا يبكي على نفسِهِ ... مَنْ ضَحِكَ الشيبُ على ذقنِهِ

وقال ابن المعتز:

فما أقبحَ التفريطَ في زمنِ الصِّبا ... فكيفَ به والشيبُ في الرأسِ شاملُ

وكان المأمون يتمثَّل بقول الشاعر:

رأتْ وَضَحاً[1] في الرأسِ مني فَرَاعَها ... فريقان مبيضٌّ به وبهيمُ
تفاريقُ شيبٍ في السوادِ لوامعٌ ... فيا حُسَنْ ليلٍ لاح فيه نجومُ

ويقال في الرجل إذا شاب: ليله عسعس وصُبْحُهُ تنفس:

إذا نازعَ الشيبُ الشبابَ فأصلتا ... بسيفيهما فالشيبُ لا شكَّ غالبُ

وقال آخر:

---

(١) وضحاً: أبيضَ.

ألا إنَّ شَيْبَ العبدِ من نَقْرةِ القفا ... وشَيْبُ كرامِ الناسِ شيبُ المفارقِ

وقال العتبي:

قالَتْ عَهِدْتُكَ مجنوناً فقلتُ لها ... إن الشبابَ جنونٌ برؤهُ الكبرُ

وقال علي بن ربيع:

كبرتُ ودقَّ العظمُ مِني وعقَّني ... بنيَّ وزالَتْ عن فراشي العقائدُ
وأصبحتُ أعشَى أخبطُ الأرضَ بالعصا ... يقودُني بينَ البيوتِ الولائدُ[1]

وقال آخر[2]:

عريتُ من الشبابِ وكنتُ غُصْناً ... كما يَعْرَى من الورقِ القضيبُ
ونُحْتُ على الشبابِ بدمعِ عيني ... فما نفَعَ البكاءُ ولا النحيبُ
فيا ليتَ الشبابَ يعود يوماً ... فأخبِرُهُ بما فعلَ المشيبُ

وقال ابن النقيب:

وكم كان من عينٍ عليّ وحافظٍ ... وكم كان من واشٍ لها ورقيبِ
فلما بدا شيبي اطمأنَّتْ قلوبُهم ... ولم يحفظوني واكتفوا بمشيبي

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: ما شبهت الشباب إلا كشيء كان في كمي فسقط. قال الشاعر:

شيئان لو بكتِ الدماءُ عليهما ... عيناك حتى يؤذِنا بذهابِ
لم يبلغا المعشارَ من حقَّيْهما ... فَقْدُ الشباب وفرقةُ الأحبابِ

وقال الجاحظ:

أترجُو أن تكونَ وأنت شيخٌ ... كما قد كنتَ في زمنِ الشبابِ
لقد كذبتك نفسُك ليسَ ثوبٍ ... دريسٍ[3] كالجديدِ من الثيابِ

ومما جاء في الخضاب: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالخضاب فإنه أهيبُ لعدوّكم وأعجب لنسائكم». وعن أبي عامر الأنصاري رضي الله عنه: رأيت أبا بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنه يغير بالحناء والكتم. وقيل: خضاب الحناء يصفي البصر، ويذهب بالصداع، ويزيد في الباه[4]:

تسوّد أعلاها وتأبى أصولُها ... وليس إلى ردِّ الشبابِ سبيلُ

وقيل: وفد عبد المطلب بن هاشم على سيف بن ذي يزن، فقال له: لو خضبت شعرك! فلما رجع إلى مكة اختضب، فقالت امرأته نبيلة: ما أحسن هذا لو دام، فقال:

---

(١) الولائد: أصبح قليل النظر يحتاج معيناً.
(٢) هو أبو العتاهية.
(٣) دريس: قديم.
(٤) الباه: القدرة الجنسية.

لـو دام لـي هـذا الخضـابُ حمـدتُـه ... وكـانَ بـديـلاً مـن خليـلٍ قـدِ انصـرم
تمتَّعْـتُ منـهُ والحيـاةُ قصيـرةٌ ... ولا بـدَّ مـن مـوتٍ نبيلـةَ أو هـرم

وقال آخر:

يـا خـاضـبَ الشيـبِ الـذي ... فـي كـلِّ ثـالثـةٍ يعـودُ
إن الخضـاب إذا نضـا[1] ... فكـأنـه شيـب جـديـد
فـدعِ المشيـبَ ومـا يـريـدُ ... فلـن يعـودَ كمـا تـريـدُ

وقال محمود الورّاق:

فمـا منـكَ الشبـابُ ولسـتَ منـه ... إذا سـامَتْـكَ لحيتـك الخضـابـا

الفصل الثالث: في العافية والصحة

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إليك انتهت الأماني يا صاحب العافية». وعنه ﷺ أنه قال: «أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة أن يقال له: ألم أصحّ بدنك وأروك بالماء البارد». وقال عليّ رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ثم لتسئلّن يومئذٍ عن النعيم﴾[2] هو الأمن، والصحة، والعافية. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: يسأل الله العباد عن الأبدان والأسماع فيم استعملوها وهو أعلم بذلك. وقال ابن عيينة: من تمام النعمة طول الحياة في الصحة والأمن والسرور. وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: لو رأيت ليلة القدر ما سألت الله إلا العفو والعافية. وقال قبيصة بن ذؤيب: كنا نسمع نداء عبد الملك بن مروان من وراء الحجرة في مرضه: يا أهل النعم لا تستقلوا شيئاً من النعم مع العافية، ويقال: البحر لا جوار له، والملك لا صديق له، والعافية لا ثمن لها، قال ابن الرومي:

إذا مـا كسـاكَ الـدهـرُ سـربـالَ صحـةٍ ... ولـم تَخْـلُ مـن قـوتٍ يحـلُّ ويقـربُ
فـلا تغبطَـنْ أهـلَ الكثيـرِ فـإنمـا ... علـى قـدرِ مـا يعطيهِـمُ الـدهـرُ يسلـبُ

ويقال: صحة البدن أوفر القسم. وذكر بعضهم العافية فقال: وأي وطاء[3]، وأي غطاء. وقال حكيم: إن كان شيء فوق الحياة فالصحة، وإن كان شيء مثل الحياة فالغنى، وإن كان شيء فوق الموت فالمرض، وإن كان شيء مثل الموت فالفقر. وقال عليّ رضي الله تعالى عنه: ما المبتلىٰ الذي اشتدَّ به البلاء بأحوج إلى الدعاء، من المعافى الذي لا يأمن البلاء. وقيل: إن فأرة البيوت رأت فأرة الصحراء في شدّة ومحنة، فقالت لها: ما تصنعين ههنا؟ اذهبي معي إلى البيوت التي فيها أنواع النعيم والخصب. فذهبت معها وإذا صاحب البيت الذي كانت تسكنه قد هيأ لها الرصد لبنة تحتها شحمة فاقتحمت لتأخذ الشحمة فوقعت عليها اللبنة فحطمتها فهربت الفأرة البرية، وهزّت رأسها متعجبة

(١) نضا: زال وخلع.
(٢) سورة: التكاثر، الاية: ٨.
(٣) وطاء: حسُنَت موضع قدم.

وقالت: أرى نعمة كثيرة وبلاء شديداً، ألا وإن العافية والفقر أحبُّ إليّ من غنى يكون فيه الموت ثم فرّت إلى البرية. وكان عند رومي خنزير فربطه إلى أسطوانة ووضع العلف بين يديه ليسمنه، وكان بجنبه أتان لها جحش، وكان ذلك الجحش يلتقط من العلف ما يتناثر، فقال لأمه: يا أماه ما أطيب هذا العلف لو دام، فقالت له: يا بنيّ لا تقربه فإنّ وراءه الطامة الكبرى، فلما أراد الرومي أن يذبح الخنزير ووضع السكين على حلقه جعل يضطرب وينفخ، فهرب الجحش وأتى إلى أمه وأخرج لها أسنانه وقال: ويحك يا أماه انظري هل بقي في خلال أسناني شيء من ذلك العلف فاقلعيه فما أحسن القنع مع السلامة، والله أعلم بالصواب.

الفصل الرابع: في أخبار المعمرين في الجاهلية والإسلام

قال الحسن رضي الله تعالى عنه: أفضل الناس ثواباً يوم القيامة المؤمن المعمر. وقال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخياركم؟» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «أطولكم أعماراً في الإسلام إذا سدّدوا[1]»، وزعموا أنّ تُبَّعاً الفزاري كان من المعمرين، وأنه دخل على بعض خلفاء بني أمية فسأله عن عمره، فقال: عشت أربعمائة وعشرين سنة في فترة عيسى ابن مريم عليه السلام في الجاهلية، وستين في الإسلام، قال له: أخبرني عما رأيت في سالف عمرك؟ قال: رأيت الدنيا ليلة في أثر ليلة، ويوماً في أثر يوم، ورأيت الناس بين جامع مال مفرق، ومفرق مال مجموع، وبين قويّ يظلم، وضعيف يُظلم، وصغير يكبر، وكبير يهرم، وحي يموت، وجنين يولد، وكلهم بين مسرور بموجود، ومحزون بمفقود. وقد قال ابن الجوزي: إن آدم عليه السلام عاش ألف سنة، وعاش ابنه شيث تسعمائة سنة، وعاش ابنه مهلاييل ثمانمائة وخمساً وتسعين سنة، وعاش ابنه إدريس ثلثمائة خمساً وتسعين سنة، وعاش ابنه هود تسعمائة واثنين وستين سنة، وعاش ابنه متوشلخ تسعمائة وستين سنة، وأما ابنه نوح عليه السلام فروي عن عبد اللّه بن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: عاش نوح عليه السلام ألفاً وأربعمائة وخمسين عاماً. وأما الخضر عليه السلام واسمه خضرون فهو أطول بني آدم عمراً. وذكر أن لقمان عليه السلام عاش ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة. وكانت العرب لا تعد من الأعمار إلا ما بلغ مائة وعشرين سنة فما فوقها. وعاش اكثم بن صيفي ثلثمائة وستين سنة وأدرك الإسلام. وعاش سطيح سبعمائة سنة. وعاش قس بن ساعدة الإيادي سبعمائة سنة وكان من حكماء العرب. وعاش لبيد بن ربيعة الشاعر مائة وعشرين سنة وأدرك الإسلام، وعاش دريد بن الصمة مائة وسبعين سنة حتى سقط حاجباه على عينيه وأدرك الإسلام ولم يسلم. ومن المعمرين عدي بن حاتم الطائي، وزهير بن جنادة عاشاً مائتين وعشرين سنة. ومن المعمرين ذو الأصابع العذري عاش مائتين وعشرين سنة وهو أحد حكماء العرب في الجاهلية، ومن المعمرين عمرو بن معد يكرب الزبيدي. ومن المعمرين عبد المسيح بن نفيلة عاش ثلاثمائة وعشرين سنة وأدرك الإسلام. وقد رأيت رجلاً من أهل محلة مسير بالغربية وذكر أنه بلغ من العمر مائة وأربعين سنة، وأن امرأة بلغت من العمر كذلك ولقد رأيت منه ما لم أر من بعض شبان هذا العصر في القوة، وشدة البأس ورأيت له ولداً شيخاً هو أشد قوة من ولده وذلك في صفر سنة تسع وعشرين وثمانمائة. والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) سدّدوا: أصابوا الرأي.